قناة لوغوس بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة
أكتوبر – نوفمبر ٢٠١٦م
الحلقتان الثَّامنة والتَّاسعة

ضرورة المياه للمعموديَّة وعمل الرُّوح القُدُس فيها وأهميَّة دور الإشبين

ضرورة المياه للمعموديَّة

يربط العلاَّمة ترتليان (١٦٠-٢٢٥م) بين استخدام المياه في المعموديَّة وبين الخلق الجديد فيقول:

[إنَّ استخدام المياه يجب أن نفحص عنه، والنُّصوص الخاصة به كثيرة، بل هي منذ البدء. والمياه كانت إحدى العناصر الموجودة قبل ترتيب العالم، وكانت في حالة خمود قبلما صوَّر الله كلَّ شيء، لذلك ففي البدء الأوَّل يقول الكتاب، خلق الله السَّموات والأرض، ولكن الأرض لم تكن مرئيَّة بعد، أي لم يكن لها شكلٌ محدَّد، وكانت الظُّلمة على وجه الغمر، وروح الرَّب يرف على وجه المياه (انظر: تكوين ١:١-٢). ولعلَّ أوَّل ما يجب أن تُكرِّمه أيُّها الإنسان، هو عُمر المياه، فهي أقدم عناصر الكون.

وثاني شيء هو المقام الشَّريف للمياه، لأنَّها كانت عرش الرُّوح الإلهي، وهذا يعني أنَّ الرُّوح سُرَّ بالمياه أكثر من العناصر الأُخرى ...

وفي الحقيقة ألم تكن المياه هي التي رتَّبت خلق العالم كما رتَّبه الله؟ ... كانت المياه أوَّل من أخرج كائنات لها حياة، وهذا لا يُدهشنا بالمرَّة إذا كانت المياه في المعموديَّة تعرف كيف تعطي الحياة. ألم تكن المياه عنصراً مساعداً في خلق الإنسان؟] (مقالة عن المعموديَّة ٣:٤).

كانت الغنوسيَّة تعلِّم أنَّ المادة شريرة، وبالتَّالي لا يجوز أن تدخل في الأسرار، ولكن العلاَّمة ترتليان (١٦٠-٢٢٥م) لا يؤكِّد قداسة الماء فقط كعرش للرُّوح الإلهي منذ بداية الخليقة، بل يؤكِّد حلول الرُّوح على المياه، واستمرار بقائه يرف عليها لكي يمنح المادة (أي المياه) قوَّة فعَّالة للتَّقديس.

ولقد وضع ترتليان مَبدءًا هامًّا وهو أنَّ الإنسان مكوَّن من جسد وروح، ولذلك فإنَّ ميلاده الجديد يتم بالماء والرُّوح القُدُس. ولقد ركَّز آباء الكنيسة من بعده على كلٍّ من الماء والرُّوح، ودور كلٍّ منهما في ميلاد الإنسان الجديد. فالماء لتطهير الجسد والرُّوح لتطهير النَّفس.

فيقول القدِّيس غريغوريوس النِّيسي (٣٣٠-٣٩٥م) في ذلك:

[عندما نبحث بدقَّة عن المعموديَّة بادئين من النَّبع الأصلي، أي إعلانات الأسفار، فإنَّنا نجد أنَّه «إن لم يولد الإنسان من الماء والرُّوح، لا يقدر أن يدخل ملكوت الله» (يوحنَّا ٣:٣)، فلماذا كان الماء والرُّوح معاً؟ ولماذا لا يكفي الرُّوح لكي يُكمِّل المعموديَّة؟ ذلك لأنَّ الإنسان كما نعرفه جيِّداً مركبٌ وليس بسيطاً. ولذلك فإنَّ الدَّواء أيضاً يجب أن يكون مركباً وليس بسيطاً لكي يشفي الطَّبيعة البشريَّة شفاءً كاملاً. ولذلك جسده المنظور يغتسل بالماء أي بالعنصر المنظور، أمَّا نفسه التي لا تستطيع رؤيتها، فإنَّ الرُّوح القُدُس غير المنظور عندما ندعوه بالإيمان، يُطهِّر النَّفس].

وعن أهميَّة وجود المياه كعنصر أساسي في المعموديَّة يقول القدِّيس يوحنَّا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م):

[لماذا تُعدُّ المياه ضروريَّة للمعموديَّة؟ وهذا بدوره يقودنا إلى سؤال آخر، لماذا كان التُّراب ضروريًّا لخلق الإنسان؟ ... إنَّ الدَّور الذي تقوم به المياه ضروري ولا يمكن استبدال الماء بأيِّ شيء آخر، وهذا نتحقَّق منه من الحادثة الآتية؛ عندما حلَّ الرُّوح القُدُس قبل التَّعميد، لم يكتفي الرَّسول بذلك، لأنَّ المياه ضروريَّة للتَّعميد، وليست شيئاً زائداً. فماذا قال: «هل يستطيع أحدٌ أن يمنع الماء حتى لا يعتمد هؤلاء الذين قبلوا الرُّوح القُدُس كما قبلناه نحن أيضاً؟» (أعمال ١٠:٤٧) فما هو دور المياه؟ ... في المياه يتم الدَّفن والموت والقيامة والحياة. كلُّ هذه تحدث مرَّة واحدة، عندما تغطس رؤوسنا تحت المياه كما لو كنَّا في قبر ...] (عظة ٢٥ على إنجيل القديس يوحنَّا).

ويقول القدِّيس غريغوريوس النَّزينزي (٣٢٩-٣٨٩):

[لأنَّنا من طبيعتَين، أعني الجسد والنَّفْس، الأوَّل منظور والثَّاني غير منظور، لذلك فإنَّ التَّطهير هو أيضاً مركَّب من الماء والرُّوح. التَّطهير المنظور بالماء للجسد، والثَّاني المصاحب له غير منظور ولا يخص الجسد. الأوَّل ظاهر والثَّاني خفي يطهِّر الأعماق] (عظة ٤١ على المعموديَّة).

ولقد أفاض القدِّيس كيرلُّس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م) في شرح ذلك فيقول:

[المياه تطهِّر الجسد، والرُّوح يختم النَّفْس لكي تقترب من الله، وقد رُشَّت قلوبُنا بالرُّوح، واغتسلت أجسادنا بماء نقي (عبرانيِّين ١٠:١٩)، ولكي تولد النَّفْس مرَّة ثانية بالإيمان، فالجسد يشترك في النِّعمة بالماء] (عظة ٣:٣).

ولقد شدَّد آباء الكنيسة على ضرورة الماء للمعموديَّة، بسبب أنَّ بعض المبتدعين اعتبروا أنَّ أيَّة مادة سائلة بالإضافة إلى الماء، تصلُح لممارسة السِّر كالزَّيت والزِّئبق والخمر ... الخ.

ويوجز القدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) معنى كون المعموديَّة بالماء والرُّوح وليس بأيِّهما فقط دون الآخر فيقول:

[أعطانا الرَّب مدبِّر حياتنا عهد المعموديَّة وجعله رمزاً للحياة والموت. فالمياه تُكمِّل صورة الموت، أمَّا الرُّوح فهو يعطينا عربون الحياة. ومن هذا يمكننا أن نجيب بوضوح على السؤال عن علاقة الماء بالرُّوح، ذلك أنَّ غاية المعموديَّة مزدوجة:

أوَّلاً: القضاء على جسد الخطيئة لكي لا يثمر للموت (رومية ٦:٦؛ ٧:٥).

ثانياً: الحياة بالرُّوح التي تُثمر القداسة (رومية ٦:٢٢).

ويحدث هذا عندما تتقبَّل المياه الجسد، مثلما يتقبَّل القبر الجسد، بينما يسكب الرُّوح القوَّة المحيية، ويجدِّد نفوسنا من موت الخطيئة، ويعيدنا إلى الحياة الأولى] (الرُّوح القدس١٥:٥).

عمل الرُّوح القُدُس في المعموديَّة

الرُّوح القُدُس يقدِّس مياه المعموديَّة، ليس لأنَّ المياه نجسة، فكلمة "التَّقديس" تعني أيضاً "التَّخصيص"، و"التَّكريس"، و"الاشتراك في العمل الإلهي". فمعنى تقديس المياه، أن تنال قوَّة إلهيَّة غير طبيعيَّة أي ليست من طبيعة المياه، لكي تلد الإنسان من جديد.

يقول العلاَّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠-٢١٥م):

[المسيح اعتمد لكي يقدِّس المياه للذين سيولدون من جديد].

ويقول العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م):

[إن كلَّ ما ارتبط بالمياه، أخذ معناه من معموديَّة المسيح في الأردن، وليس العكس].

ويقول القدِّيس يوحنَّا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م):
[ليست المياه هي صاحبة الفاعليَّة، ولكنَّها تُصبح فعَّالة متى قبلت نعمة الرُّوح القُدُس، عندئذ تزيل تماماً خطايانا] (عظة ٣٦ على إنجيل القديس يوحنَّا).

ويقول القدِّيس إبيفانيوس (٣١٥-٤٠٣م) أُسقُف قبرص في عظة له عن الرُّوح القدس:
[المياه وحدها لا يمكن أن تطهِّرنا، ولكن القوَّة التي في المياه. ثمَّ الإيمان وعمل الله والرَّجاء في القوَّة التي تكمِّل الأسرار، أي استدعاء مصدر القداسة (الرُّوح القُدُس)].

ويؤكِّد ذلك أيضاً القدِّيس كيرلُّس الكبير (٤١٢-٤٤٤م) فيقول:
[المياه البسيطة بعد استدعاء الرُّوح والمسيح والآب، تتقبَّل قوَّة جديدة للتَّقديس] (٣:٣٠).

إنَّ عمل الرُّوح القُدُس في مياه المعموديَّة توضِّحه معموديَّة المسيح نفسها، حينما حلَّ الرُّوح القُدُس عليه وعلى المياه، وهو ما جعل الكنيسة تستدعي الرُّوح القُدُس في خدمة المعموديَّة. وفي ذلك يقول العلاَّمة ترتليان (١٦٠-٢٢٥م):
[اعتمد المسيح أعني طهَّر الماء بعماده] (ضدَّ اليهود: ٨).

ويقول القدِّيس غريغوريوس النِّيسي (٣٣٠-٣٩٥م):
[حينما تدخلون في الماء لا تجدون بعد ماءً بسيطاً، بل تنتظرون خلاصاً بالرُّوح القُدُس. لأنَّكم تستطيعون بلا مانع أن تصلوا إلى الكمال. وهذا الكلام ليس كلامي، بل كلام الرَّب يسوع المسيح نفسه، الذي له السُّلطان في هذا السِّر، كما في بقيَّة الأسرار وهو: «إن كان أحدٌ لا يولد من الماء والرُّوح، فلا يقدر أن يدخل ملكوت الله» الذي معناه أن لا تكون المعموديَّة بالماء فقط. لأنَّ الذي يعتمد بالماء فقط لا يستحق نعمة الله، ولا ينالها كاملة، كما أنَّ الذي لا يُختم في الماء مهما كانت أعماله الصَّالحة، لا يستطيع أن يدخل ملكوت السَّموات] (عظة ٣:٢).

ويقول القدِّيس كيرلُّس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م) أيضاً:
[عندما تنزلون في الماء لا تفكِّروا في المادة المجرَّدة، بل تطلَّعوا إلى الخلاص بقوَّة الرُّوح القُدُس. لأنَّه بدونهما كليهما لا يمكن أن تصيروا كاملين. فمن يعتمد بالماء ولا يكون متأهِّلاً للرُّوح، لا يتقبَّل نعمة الكمال] (عظة ٣:٤).

وفي عظة أُخرى له يقول أيضاً:
[كما أنَّ الذي يدخل في الماء ويُعمَّد يُغمر بالمياه من كلِّ جهة، هكذا قد اعتمد تماماً من الرُّوح أيضاً. الماء يغمُر من الخارج، وأمَّا الرُّوح فيعمِّد النَّفس داخليًّا بلا انقطاع] (عظة ٣:٢).

أهمِّيَّة دور العرَّاب أو الإشبين

''الإشبين'' كلمة سريانيَّة تعني ''الوصي أو الحارس''، ويقابلها كلمة ''العرَّاب'' في اللُّغة العربيَّة. أمَّا الكلمة اليونانيَّة المقابلة فهي ἀναδεχόμενος وتعني ''ضامن المَدين أو المتكفِّل بالمدين''[1].

والإشبين هو الذي يشهد لمن قدَّمه إلى المعموديَّة أنَّه يستحقَّها، فنقرأ في التَّقليد الرسولي (دُوِّن قبل سنة ٢١٥م): ''وعندما يُختار من ينالون المعموديَّة، فلتُفحص حياتهم، هل عاشوا بتقوى عندما كانوا موعوظين؟ وهل أكرموا الأرامل؟ وهل عادوا المرضى وأكملوا كلَّ شيء حسناً؟ فإذا شهد لهم الذين أتوا بهم أنهم فعلوا هكذا، فليسمعوا الإنجيل'' (٢٠:١،٢).

---

[1] Thomas M. Finn, *The Liturgy of Baptism in the Baptismal Instructions of St. John Chrysostom*, Catholic university of America, 1967, p. 57.

مقتبس عن: ألكسندر شميمان، بالماء والرُّوح، مرجع سابق، ص ٢٢٩

وهو ما يتَّضح معه أنَّ وجود ''الإشبين'' كان ضروريًّا للكبار كما هو للصِّغار أيضاً. فهو للكبار بمثابة المعلِّم الكنسي، والأب الرُّوحي للمعمَّد، والذي يقوده في الطَّريق الرُّوحي بعد المعموديَّة، ولكنَّه لا يجيب عنه في أثناء مراحل طقوس التَّعميد، وهو ما يؤكِّده كتاب (الرِّئاسات الكنسيَّة ٨:٢) المنسوب لديونيسيوس الأريوباغي .

أمَّا للصِّغار، فهو المسئول عن تربية ابنه أو ابنته في المعموديَّة، وهو لا يتدخَّل في تكميل أو تتميم مراسيم المعموديَّة نفسها، سوى أنه يجيب نيابة عن الطِّفل الذي يمنعه سنُّه من الكلام أو الإدراك، وذلك في طقس جحد الشيطان، والاعتراف بالإيمان. أمَّا الشَّمامسة، فهم الذين يعود إليهم مهمَّة مساعدة الكاهن في مراسيم التَّعميد، لاسيَّما لحظة التَّغطيس في الماء. أمَّا الشَّمَّاسات، فلا ذكر لهن في مراسيم التَّعميد سوى في كتاب عهد الرَّب، وهو الكتاب الذي يصف مراسيم المعموديَّة في الطَّقس السِّرياني[٢].

يقول **الأب توماس فين** Finn: ''اشتدَّت الحاجة إلى العرَّابين، وخصوصاً منذ بداية القرن الرَّابع الميلادي، بسبب ازدياد أعداد المقبلين إلى الكنيسة ازدياداً كبيراً. و لم يكن في إمكان ممثِّلي الكنيسة في المُدُن الكُبرى مثل أنطاكية، أن يعرفوا خُلُق المرشَّحين العديدين الرَّاغبين في المعموديَّة أو طباعهم، و لم يكن في إمكانهم توفير الاهتمام الخاص والضَّروري من أجل تربية مسيحيَّة كاملة. وهكذا فإنَّ العرَّاب إضافة إلى كونه كفيلاً، صار معلِّماً ومرشداً أيضاً''[٣]. ويحدِّد التَّقليد المصري أن يكون الإشبين أحد الوالدَين أو أحد أفراد العائلة[٤]، ولكن من نفس الجنس. ويكون راشداً مشهوداً له بالحكمة والتَّعقُّل، عارفاً بقواعد الإيمان والأسرار، ذا تقوى، متحلِّياً بالفضائل.

وكان اسم المعمَّد يُكتب مع اسم العرَّاب الذي كفله، تأكيداً لمسؤوليَّته الرُّوحيَّة. ونظراً لهذه القرابة الرُّوحيَّة بين الإشبين وابنه أو ابنته في المعموديَّة، فقد منعت قوانين الإمبراطور جوستنيان (٤٨٣-٥٦٥م) الزَّواج بينهما.

ولقد أكَّد التَّقليد الكنسي على ضرورة اختيار الوالدَين إذا كانا يصلحان، وإلاَّ فاختيار عرَّاب من نفس الجنس، راشداً مشهوداً له بالحكمة والتَّعقُّل، عارفاً بقواعد الإيمان والأسرار، ذا تقوى، متحلِّياً بالفضائل. فنقرأ في كتاب التَّقليد الرَّسولي:
''وليعمِّدوا أوَّلاً الأطفال الصِّغار، ومن يقدر أن يتكلَّم عن نفسه فليتكلَّم. ومن لا يقدر، فليتكلَّم آباؤهم عنهم، أو واحد من أهلهم'' (٤:٢١). ذلك لأنَّ الذي يجيب عن الطِّفل في المعموديَّة، لابد أن يكون هو إشبينه المتكفِّل به، وهو المسئول عنه أمام الله.

وكذلك القانون (١٠٥) من القوانين الكنسيَّة المصريَّة المنسوبة للقدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م): يحدِّد الأب أو الأم أو الأخ إشبيناً للمعمَّد.

ويوجه القدِّيس يوحنَّا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) كلامه إلى العرَّابين فيقول:

> [إذا كان الذين يكفلون غيرهم فيما يخص المال، يجعلون أنفسهم عُرضة لدفع قيمة الضَّمانة كلِّها، فيجب على الذين يكفلون غيرهم فيما يخص الرُّوح ويتعلَّق بالفضيلة، أن يكونوا أكثر تيقُّظاً. عليهم أن يُظهروا محبَّتهم الأبويَّة بتشجيع أولئك الذين يكفلونهم ونصحهم وتأديبهم، وألاَّ يظنوا أنَّ ما يحدث هو أمرٌ بسيط، بل عليهم أن يعلموا أنهم مشاركون لفضيلة أولئك الذين ائتمنوا على قيادتهم في الطَّريق، وفي المقابل معرَّضون لعقاب شديد إذا تهاون أولئك الذين ضمنوهم] (التَّعليم عن المعموديَّة ١٥:٢، ١٦).

ويقول الأب فين Finn: ''اشتدَّت الحاجة إلى العرَّابين، وخصوصاً منذ بداية القرن الرَّابع الميلادي، بسبب ازدياد أعداد المقبلين إلى الكنيسة ازدياداً كبيراً. و لم يكن في إمكان ممثِّلي الكنيسة في المُدُن الكُبرى مثل أنطاكية، أن يعرفوا خُلُق المرشَّحين

---

[2] *DACL*, t. 2, p. 269.

[٣] الأب ألكسندر شميمان، بالماء والرُّوح، منشورات النُّور، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٢٢٩

[4] *DACL*, t. 2, p. 269.

العديدين الرَّاغبين في المعموديَّة أو طباعهم، و لم يكن في إمكانهم توفير الاهتمام الخاص والضَّروري من أجل تربية مسيحيَّة كاملة. وهكذا فإنَّ العرَّاب إضافة إلى كونه كفيلاً، صار معلِّماً ومرشداً أيضاً"[٥].

وفي الطَّقس القبطي، يوصي الكاهن والدي المعمَّدين أو أشابينهم في ختام صلوات طقسي المعموديَّة والميرون قائلاً:

"اعلموا أيها الإخوة المباركون مقدار هذه الكرامة التي نالها أولادكم الذي عُدُّوا من المختارين، والنِّعمة التي أُسبغت عليهم، وصاروا من جملة المسيحيِّين بالصِّبغة الطَّاهرة التي أمر بها مخلِّص العالمين ... فاليَوم يا أحبائي صار أولادكم وارثين الحياة مع السيِّد المسيح ... ألم تسمعوا الكلام المخوف المرهوب الذي قيل لكم عن المعموديَّة المقدسة؟ ألم تجيبوا عن أولادكم قائلين: نجحدك أيها الشيطان وكلَّ أعمالك النَّجسة؟ ألم تُقبلوا بهم إلى الشَّرق، وتخضعوا للرَّب قائلين: نؤمن بإله واحد؟

فالآن يا أحبائي، اعلموا أنَّكم تسلَّمتم أولادكم من المعموديَّة المقدَّسة الطَّاهرة الرُّوحانيَّة، وأنَّه يطالبكم بهم إذا غفلتم عنهم، وعن تأديبهم وردِّهم عن الأمور غير المُرضية.

اجتهدوا في تعليمهم تلاوة الكُتُب المقدَّسة التي هي أنفاس الله، وملازمة الكنيسة باكر وعشيَّة، وصوم يومي الأربعاء والجمعة، والأربعين المقدَّسة وكلّ الأصوام، والقوانين الكنسيَّة، والأوامر الرَّسوليَّة، فإنَّهم من الآن صاروا مستحقِّين التَّناول من الأسرار المقدَّسة الإلهيَّة، التي هي جسد ودم ابن الله المسفوك عن خلاص البريَّة.

وأنتم أيها الأشابين المباركون، والإخوة الأنقياء الأمناء ... اعلموا أنَّكم قد صرتم بهذا العماد كُفلاء وضامنين، وأنتم منذ اليَوم والديهم الرُّوحانيُّون، والمطَّلعون على أسرارهم، والمتولُّون عن أوزارهم، والمشاهدون كلَّ يوم جميع أحوالهم، فأنتم من اليَوم مسئولون عن أعمالهم وأقوالهم. وقد ضمنتموهم من السيِّد المسيح ضماناً صحيحاً ... لتجاوبوا عنهم في يوم الدِّين ... وتسلَّمتم هذه الوديعة بمقتضى الشَّريعة، وقد شهد عليكم كهنة الله والكنيسة لتجتهدوا في تعليمهم بالأدب والوقار، وتعلِّموهم طرق الله الخفيَّة ..."[٥].

واليَوم، أصبح دور العرَّاب في طقس المعموديَّة شكليًّا، ففي الغالب تقوم أُم الطِّفل بدور الإشبين لطفلها، حتى وإن كانت تجهل حقائق الإيمان، ولا ينطبق عليها الشُّروط التي وضعتها الكنيسة لاختيار العرَّاب. فتقتصر وظيفتها على فترة الخدمة اللِّيتورجيَّة لسرِّ المعموديَّة وحسب. والنَّتيجة هي؛ أنَّ كلَّ الأطفال المولودين من أبوين مسيحيَّين يعتمدون في الكنيسة بلا استثناء تقريباً، لكن ما أقلَّ من يلازم الكنيسة منهم بعد إدراكهم وبلوغهم.

إنَّ الجهاد الشَّديد الذي يبذله الخُدَّام والرُّعاة في اجتذاب النُّفوس – لا أقول غير المؤمنة، بل المؤمنة اسماً – للمسيح والكنيسة، كان يمكن توفيره إن تربَّى الطِّفل في رعاية إشبين أو عرَّاب صحيح الإيمان، يحيا الكنيسة. فالخمس سنوات الأولى من عُمر الطِّفل هي أخطر سني حياته، إذ عليها ينبني مستقبله كلُّه. فلقد تأكَّد بما لا يترك مجالاً لجدال، أنَّ حياة الإنسان بجملتها، روحيَّة كانت أو نفسيَّة أو اجتماعيَّة، تتشكَّل بتدقيق في السَّنوات الأولى من عُمره. ولا يمكُننا أن ندَّعي أنَّ خدمة مدارس الأحد والتي يحضر فيها الطِّفل في حدود الخامسة أو السَّادسة من عُمره، ولمدَّة ساعة أو ساعتَين في الأسبوع، يمكنها وحدها أن توجِّه حياة الطِّفل توجيهاً عميقاً، وتخط فيه سمات شخصيَّته، وإنَّما هو البيت.

هذا هو حجم التَّبعة الملقاة على عاتق الأُم التي صارت إشبين طفلها، فأيُّ جواب تجيبه إن لم تُربي طفلها في مخافة الله وحُب الكنيسة؟ ومن جهة أُخرى، لا يمكُننا أن نغفل تغاضي الكنيسة في كثير من الحالات في البحث عن أهليَّة الأُم كإشبينة لطفلها.

---

[٥] نفس المرجع.